



بلاغة الحجاج في خطاب عبدالله بن عباس -منطلقات وتقنيات

م.د. كمال محمد عبد العالي العوادي

جامعة سومر، كلية التربية الأساسية

kalawady55@gmail.com

ملخص:

الحجاج ظاهرة لغوية يركز عليها الخطاب الإنساني اليومي والرسمي، غير أنّ المجال الحقيقي للحجاج هو الخطابة والقضاء والفلسفة والفقهاء؛ لكون هذه المجالات تحتاج إلى المناقشة والجدل والتفاعل والحوار، وبيان الحجة لإفحام الخصم، من أجل الوصول إلى الإقناع بفكرة أو قضية ما، أو لتغيير سلوك معين. وبذلك أصبح موضوعاً هاماً ولافتاً لانتباه الباحثين والدارسين بعد أن سجّل حضوراً فعّالاً في المجالات والأنشطة الدينية والسياسية والتعليمية، التي أثبتت أن التواصل بين الأفراد له غاية وهدف، وأنّ الهدف لا يتم إلا عبر إستراتيجية لسانية، تنهض بالعملية الخطابية الحجاجية، ولذلك ارتكز خطاب عبدالله بن عباس على اثبات الحجج الدالة لإفحام خصومه وإقناع مستمعيه، من ذلك انطلق البحث لإبراز بلاغة الحجاج وبيان مقدماته (منطلقاته) والتقنيات الحجاجية التي ارتكز عليها خطاب ابن عباس، ووظائفه في تشكيل المعنى، بوصفه علامة بارزة تحيل إلى طبيعة المنظومة الفكرية والثقافية للمخاطب، وبيان القدرة اللغوية التي يتمتع بها، فضلاً عن فتح الآفاق اللغوية البلاغية أمام المتلقي في الكشف عن معنى النص.

الكلمات المفتاحية: بلاغة، الحجاج، الخطاب، ابن عباس، منطلقات وتقنيات

The Rhetoric of Argumentation in the Discourses of Abdullah ibn Abbas: Principles and Techniques

Dr. Kamal Muhammad Abdul-Ali Al-Awadi

University of Sumer, College of Basic Education

Abstract

Abdullah ibn Abbas's discourse was based on presenting compelling arguments to refute his opponents and persuade his listeners. This research aims to highlight the eloquence of his argumentation, explaining its premises (starting points) and the argumentative techniques employed in his discourse, as well as its function in shaping meaning. This serves as a prominent indicator of the speaker's intellectual and cultural framework, demonstrating his linguistic prowess and opening up new linguistic and rhetorical horizons for the reader to uncover the text's meaning.

Keywords: Rhetoric, Argumentation, Discourse, Ibn Abbas, Starting Points and Techniques

مهاده: الحجاج في اللغة والاصطلاح

لغة: جاء لفظ الحجاج في المعاجم العربية حاملاً دلالات متعددة، فهو من الحجّة: أي الوجه الذي يكون به الظفر عند الخصومة، وجمع الحجّة حجج وججاج، وحجّة يحجّه حجاً غلبة على حجّته، وفي الحديث: إنّما سُميت حجّة لأنها تُحجّ: أي تقصد، لأن القصد لها وإليها، فهو إذاً من حاجبته أحاجّه حجاجاً ومحاجّة من حجّبته بالحجج التي أدليت بها(1)، وقيل الحجّة ما دُفِعَ به الخصم، فحجّ آدم موسى؛ أي غلبه بالحجّة واحتج بالشيء اتخذه حجّة وحاجّه محاجّة وحجاجاً نازعه الحجّة(2) وجاء في لسان العرب: ((حاجبته أحاجّه حجاجاً ومحاجّة حتى حجّبته أي غلبته بالحجج التي أدليت بها، ... والحجّة البرهان وقيل الحجّة ما دُفِعَ به الخصم)) (3).

أما اصطلاحاً فقد عرّفه القاضي الجرجاني بأنّ: ((الحجّة مادّل به على صحة الدعوى، وقيل الحجّة والدليل واحد)) (4).



وعرّفه كريستيان بلانتان على أنه ممارسة الفكر مع الآخر باستعمال تقنيات قادرة على نقل الفكرة ومقاصدها، فيقول: ((للمحاجة وجه معرفي، أن تحاجج يعني أن تمارس فكراً صائباً، وبواسطة الإجراء التحليلي والاتلافي نبني مادة ثم نطرح قضية للنقد، إننا نفكر ونفسر ونبرهن بواسطة الحجج والعلل والدلائل، كما نقدم الدوافع وبهذا تكون خلاصة المحاجة اكتشافاً، حيث تنتج إبداعاً أو لا شيء أقل من المعرفة)) (5)، و الحجاج عند "برلمان وتيتكاه" ينحو نحو المعقولية والحرية (6)، وبمعنى آخر إقامة الحوار ليحصل على الوفاق بين الأطراف المتحاور، ومن أجل حصول التسليم لرأي الآخر بعيداً عن الاعتباطية واللامعقول اللذين يطبعان الخطابة عادة، وبعيداً عن الإلزام والاضطرار اللذين يطبعان الجدل، ومعنى ذلك أن الحجاج عكس العنف (7)، فهو اقتناع لا إجبار فيه.

وانطلقا في حجاجهما من الأسس البلاغية مبتعدين عن التقليد السائد فيها، فأساساً نظرية تعتمد العلاقات شبه المنطقية وتؤسس لوقائع وأحداث من جهة أو تصدق قواعد في وقائع موجودة في الأصل من جهة أخرى، وجعلا ذلك كله في ثلاثة محاور، وهي: الأطر، والمقدمات والمنطلقات، والتقنيات، وبما أنّ الاتجاه الحجاجي عند برلمان بلاغياً، فإنّ الباحث سيعتمد منطلقاته وتقنياته محاور أساسية في كتابة البحث.

المبحث الأول: المنطلقات الحجاجية :

وضع منظرو الحجاج مبدأ الانطلاق في الحجاج بمقدمات مسلماته، لأن المنطلقات تتعلق بالقضايا التي ينطلق منها ويستدل بها على قضية أو رأي بعينه (8)، و ((لقد اتخذت المقدمات الحجاجية لدى من نظر لهذا العلم إشكالاً تتجلى من خلالها أنظمة الخطاب التي تحكمها)) (9)، ومن أهم تلك المنطلقات الحجاجية التي تضمنها خطاب ابن عباس:

أولاً : الوقائع : وتتمثل بـ ((ما هو مشترك بين عدّة أشخاص أو بين جميع الناس، ... إن الوقائع لا تكون عرضة للدحض أو الشك وهي تشكل نقطة انطلاق ممكنة للحجاج، وتنقسم الوقائع إلى وقائع مشاهدة معاينة، و وقائع مفترضة)) (10)، ومن شواهد ذلك ما ورد في ردّ ابن عباس لمعاوية حين سأله عن رأيه في الإمام علي (عليه السلام) وأبيه العباس وأصحاب الرسول الأكرم ﷺ قائلاً: ((يا معاوية، إنّ الله جلّ ثناؤه، وتقدّست أسماؤه، خصّ محمداً صلى الله عليه وسلم بصحابة آثروه على الأنفس والأموال، وبدّلوا النفوس دونه في كل حال، ووصفهم الله في كتابه فقال: ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا، سِيَمَاهُمْ فِي وَجْهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾)) (11)، ضمّن ابن عباس رده حجة مشاعة بين الناس - آية قرآنية - وهي من الوقائع الثابتة لدى العامة لا لبس فيها، وهي واقعة مشتركة بين جميع الناس، لها دلالتها الثابتة، فلا تحتاج إلى براهين لتدعيم بيانه وإثباته، لذا استهلها ابن عباس في خطبته.

وفي الموضوع ذاته في ردّ لابن عباس على تهكم لمروان بن الحكم في مجلس معاوية وبحضور جمع من رؤوس العرب حين أراد ابن الحكم وابن العاص ومعاوية النيل من ابن عباس، فردّ قائلاً: ((وأنتك لتقول ذلك يا عدو الله، وطريد رسول الله (صلى الله عليه وسلم) والمباح دمه، والداخل بين عثمان ورعيته بما حملهم على قطع أوداجه، وركوب أثباجه، أما والله لو طلب معاوية ثاره لأخذك به، ولو نظر في أمر عثمان لوجدك أوله وآخره، وأما قولك لي: إنك لتصرف بنابك وتورى نارك، فسل معاوية وعمراً يخبرك ليلة الهرير كيف ثبأنا للمثلات، واستخفنا بالمعضلات، وصدق جلدنا عند المصاولة، وصبرنا على الآواء والمطاولة، ... وليس لك إذ ذاك فيها مقام محمود، ولا يوم مشهود، ولا أثر معدود، وإنهما شهدا ما لو شهدت لأقلقك، فأربع على ظلعك، ولا تتعرض لما ليس لك، فإنك كالمغرور في صدف، ولا يهبط برجل، ولا يرقأ بيد)) (12)، استهل ابن عباس خطابه بواقعة معلومة لدى العرب وهي أن رسول الله ﷺ طرد أباه الحكم بن العاص ولعنه وأبعده حتى صار مشهوراً بأنه طريد رسول الله، ولم يزل منفياً أبان حياة الرسول (صلى الله عليه واله وسلم) حتى تولى الخلافة عمّه عثمان فردّه، وبذلك ساقها ابن عباس في مستهل خطابه كحجة دامغة ثابتة على فسق ابن الحكم، ثم ذكره بواقعة فتنة عثمان وضبطهم لغلغله الذي حمل كتاباً إلى عامل مصر يأمره بقتلهم (الثوار) وكانوا يعتقدون أن مروان هو الذي كتب ذلك الكتاب، وسألوا عثمان أن يسلم إليهم مروان فأبى أن يسلمه وخشى عليه القتل، ثم أخبره بليلة صفين وما قدمه بنو هاشم، خاتماً حديثه بمكانة ابن الحكم الهزيلة الوضيعة، (وأسكت على ما فيك من عيب وكأنتك مغرور مقيد، فأنت لاتبهط برجل ولا تصعد بيد، مقيد جبّئ).



فالأحداث والوقائع التي ساقها ابن عباس في ردّه لابن الحكم أمام معاوية وابن العاص وبحضور جلسائه، جاءت مطابقة ومتعارف عليها لدى العامة لا تحتاج إلى براهين داعمة، فساقها كحجج ثابتة دامغة لإسكات الطرف الآخر ودحضه.

وفي موضع آخر لجأ ابن عباس إلى سرد الوقائع كحجج دامغة لا سبيل لإنكارها ومن ذلك ما ورد في ردّه لابن الزبير خلال مفاخرة قام بها الأخير في محضر جمع من كبار القوم، أراد بها إثبات أفضليته أمام الجمع وأمام زوجه حين زواجه، وفي مناظرة له مع ابن عباس أثبت مكانته، فقال ابن الزبير: ((أست تعلم أن أبي الزبير حوارِي رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم؟ وأن أمي أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين؟ وأن عمتي خديجة سيدة نساء العالمين؟ وأن صفية عمّة رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم جدتي؟ وأن عائشة أم المؤمنين خالتي، فهل تستطيع لهذا إنكاراً؟ ردّ ابن عباس قائلًا: لا، ولقد ذكرت شرفاً شريفاً وفخراً غير أنك تفاخر من بفخره فخرت، وبفضله سموت، قال وكيف ذلك؟ قال: لأنك لم تذكر فخراً الا برسول الله صلى الله عليه وآله وسلم وأنا أولى بالفخر به منك، قال ابن الزبير: قد أنصف القارة من رامها، نشدتم الله أيها الحاضرون، أعبد المطلب أشرف أم خويلد في قریش؟ قالوا: عبدالمطلب، قال أفهاشم كان أشرف فيها أم أسد؟ قالوا: بل هاشم، قال: أفعد مناف أشرف أم عبد العزى؟ قالوا: عبد مناف، فقال ابن عباس:

ثنافرنّي يابن الزبير ! وقد قضى عليك رسول الله لا قول هازل

ولو غيرنا يابن الزبير فخرتة ولكنما ساميت شمس الأصائل

قضى لنا رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم بالفضل في قوله: ((ما أفترقت فرقتان إلا كنت في خيرهما)) فقد فارقتك من بعد قصي بن كلاب، أفنحن في فرقة الخير أم لا؟ إن قلت نعم خُصمت، وإن قلت لا كفرت، فضحك بعض القوم، فقال ابن الزبير: أما والله لا تحرّمك بطعامنا يابن عباس لأعرتك جبينك قبل أن تقوم من مجلسك، قال ابن عباس: ولم أباطل؟ فأباطل لا يغلب الحق، أم بحق؟ فالحق لا يخشى من الباطل)) (13).

فكان ردّ ابن عباس مفعماً متلبساً بالوقائع الدامغة التي يعلمها الجميع، وهذا يدل على قدرته الحجاجية في توظيفه للوقائع المستندة على قاعدة رصينة في الدراية والإجابة، لذلك استطاع أن يفحم ابن الزبير من خلال لجوئه إلى الوقائع الثابتة لدى الجمهور، مما جعلها في مقام الحجة الثابتة التي لا سبيل لدحضها، وبذلك سهلت على قائلها إثبات أحقيته في إبداء رأيه وكسر ادعاء الآخر.

ثانياً: الحقائق: وهي ((القضايا التي يؤمن بها أفراد المجتمع، وتقوم على الربط بين الوقائع ومدارها على نظريات علمية أو مفاهيم فلسفية أو دينية)) (14)، وهذا ما أورده ابن عباس في محاوراته مع عمرو بن العاص قائلًا: ((...يا عمرو إنك بعث دينك من معاوية، وأعطيت ما بيدك، ومناك ما بيد غيره، فكان الذي أخذ منك أكثر من الذي أعطاك، والذي أخذت منه دون الذي أعطيت، وكل راضٍ بما أخذ وأعطى، فلما صارت مصر في يدك كدرها عليك بالعزل والتنغيص حتى لو كانت نفسك في يدك ألقيتها إليه، وذكرت يومك مع أبي موسى، فلا أراك فخرت إلا بالغدر، ولا مننت إلا بالفجور والغش، وذكرت مشاهدك بصفين، فوالله ما ثقلت علينا يومئذ وطأتك، ولا نكتنا فيها حربك ولقد كشفت فيها عورتك، وإن كنت فيها لطويل اللسان، قصير السنان، آخر الخيل إذا أقبلت، وأولها إذا أدبرت، لك يدان: يدٌ لا تُبسّطها إلى خير، وأخرى لا تقبضها عن شر، ولسان غرور ووجهان: وجه موحش، ووجه مؤنس، ولعمري أن من باع دينه بدنيا غيره لجرى أن يطول حزنه على ما باع واشترى لك بيان وفيك خلل، ولك رأي وفيك نكد، ولك قدر وفيك حسد، وأصغر عيب فيك أعظم عيب في غيرك)) (15)، ابتداءً ابن عباس خطابه بردّ مؤثر، مرتكز على ضرب الخصم وإضعافه من خلال ضرب الإطار الديني الذي يغطي بها ابن العاص، ثم بيان مدى ضعفه أمام قائده (معاوية) وتهافته تجاه (الولاية) ولذلك سلم ما يملك من أجل كسبها ثم احتج له بمدى لهفته تجاه كسب المنصب رغم تنغيص معاوية له واستكثاره عليه، ثم احتج بحقيقة أخرى، وهو أن المنصب لا يساوي قيمة الذي أخذ منه (الدين - والكرامة) وأنك خاسر يا عمرو بصرف النظر عن الذي منح لك من معاوية، (ولاتنس يومك الغادر مع أبي موسى فجعلته فخراً، وقد مننت بالفجور والغش، وتذكر يوم صفين وقد كشفت فيها عورتك)، وهذه الحقيقة التي يعرفها الجميع وثابتة لدى العرب والمسلمين عامة، وأنك قصير وقليل الشجاعة والجهاد، كثير الكلام لا الأفعال، ثم إنك بخيل ذو شر وبهتان، فأنت من باع دينه بدنيا غيره، فأصبحت ملئ العيوب وكبارها فاقد الرأي وصبي لقائك (معاوية)، وهذه جملة من الحقائق المنطوية على لغة فلسفية مترابطة مع الجوانب الدينية



والاجتماعية التي من خلالها استطاع ابن عباس ردّ ابن العاص، مما يدل على مهارة الاستعمال الأمثل للحجج الثابتة التي تعد حقائق دامغة تمكن القائل من إثبات دعواه ورد دعوى الخصم، وبإحاطة تامة ترفع من شأن الشخص أو تنزله ولذلك وظفها ابن عباس في ردّه على ابن العاص، فأورد العنصر الديني الذي كان يلبسه الأخير ثوباً زائفاً مع خليفته معاوية لإغواء الناس، فنزعه منه ابن عباس، ثم انتقل إلى عنصر اجتماعي وهو مكانة الإنسان بين أفراد المجتمع، وأيضاً انتزعه من ابن العاص، فبان الطرف الآخر وهو لا يمتلك هذه الخصيصة الأسمى، بذلك استطاع ابن عباس تعرية الطرف الآخر من خلال ضرب الأركان الرئيسية التي تضعف الخصم وخصوصاً إن كان صاحب سلطة - من خلال التوظيف الأمثل للحقائق التي احتج بها القائل (ابن عباس) ، وبلغة بلاغية تدعم خطابه وتدحض دعوى الآخر.

وفي موضع آخر، كشف عبدالله بن عباس ، عبدالله بن الزبير، حين عاب الأخير بني هاشم ولم يذكر رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) في خطبه، لا يوم الجمعة ولا غيرها، عاتبه على ذلك قوم من خاصته وتشاءوا بذلك منه ، فقال: ((... لكنني رأيت بني هاشم إذا سمعوا ذكره، اشربوا واحمرت ألوانهم ، وطالت رقابهم ، والله ماكنت لأتي لهم سروراً وأنا أقدر عليه لا أنماهم الله ، ولا بارك عليهم بيت سوء لا أول لهم ولا آخر، والله ماترك نبي الله فيهم خيراً، استفرغ نبي الله صدقهم، فهم أكذب الناس)) (16)، فردّ عليه عبدالله بن عباس قائلاً: ((يا أيها الناس : إن ابن الزبير يزعم أن لا أول لرسول الله صلى الله عليه وآله ولا آخر فيا عجباً كل العجب، لافترائه وتكذبه ! والله إن أول من أخذ الإيلاف ، وحمى عبرات قريش لهاشم، وإن أول من سقى بمكة عذبا، وجعل باب الكعبة ذهاباً لعبد المطلب والله لقد نشأتنا ناشتتنا مع ناشئة قريش، وإن كنا لقاتلهم إذا قالوا وخطباءهم إذا خطبوا ، وما عدّ مجدّ كمجد أولنا، ولا كان في قريش مجدّ لغيرنا؛ لأنها في كفر ماحق ، ودين فاسق، وضلة وضلالة في عشواء عمياء، حتى اختار الله تعالى لها نوراً، وبعث لها سراجاً فانتجبه طيباً من طيبين، لا يسبّ بمسبة، ولا يبغي عليه غائلة، فكان واحدنا وولدنا وعمنا وابن عمنا، ثم إن اسبق السابقين اليه، منّا وابن عمنا ... واعجباً كل العجب لابن الزبير! يعيب بني هاشم، وإنما شرف هو وأبوه وجدّه بمصاهرتهم...)) (17)، ابتداءً ابن عباس خطابه بجذب انتباه الحضور من خلال استعماله لفظ النداء (أيها الناس) ، ثم لفظ تكذبه) وهو أشدّ أنواع الكذب، فضلاً عن إهانة الآخر وإضعافه، وهذه دلالة على أهمية الموضوع المراد بيانه، ثم تلا ذلك بسرد الحقائق التي تدعم قوله منها (إن أول من أخذ الإيلاف - وحمى عبرات قريش لهاشم) ، وهذه حقيقة متداولة بين المجتمع العربي، إنّ هاشم هو من جلب إيلاف الطرق التجارية باتفاقه مع العجم والقبائل العربية، وبذلك حمى التجارة ، وازدهرت تجارة قريش بفضل ذلك ، وهذا ما يحسب لهاشم وبنيه من الإقدام والشجاعة من دون غيرهم من المدعين القول دون الفعل، ثم جاء بالحقيقة الأخرى وهي (أن أول من سقى بمكة عذبا، وجعل باب الكعبة ذهاباً لعبدالمطلب) ليفصح للأخريين مكانة آل هاشم ثم تلاها بحقيقة أخرى (وما عدّ مجدّ كمجد أولنا ولا كان في قريش مجدّ لغيرنا، لأنها في كفر ماحق، ودين فاسق، حتى اختار الله تعالى لها نوراً، وبعث لها سراجاً، فانتجبه طيباً من الطيبين) وهذه حقيقة تثبت حجة ادعاء ابن عباس في مكانة آل هاشم، وهي حقيقة لا اختلاف عليها، ثم ختمها بحقيقة أخرى حين قال: (واعجباً كل العجب لابن الزبير! يعيب بني هاشم، وإنما شرف هو وأبوه وجدّه بمصاهرتهم) ، فتلك حقائق لها دلالتها الحجاجية الدامغة، قام بتوظيفها ابن عباس بطريقة سردية ترتيبية أثبت من خلالها مكانة آل هاشم، وقوتهم على جميع الأصعدة الدينية والاجتماعية، فضلاً عن ردّ ادعاء ابن الزبير دمج آراءه أمام الجمهور، وهذا ما حصل بفضل الحجج المستندة على الحقائق في نفي خطاب الآخر، والتي حملت في طياتها قدرة ابن عباس في توظيف الحقائق البرهانية وتمكنه من اثبات قوله وإيصال غايته.

ثالثاً : الإفتراضات : و ((تحظى الافتراضات شأنها شأن الوقائع والحقائق بموافقة الجمهور)) (18) الا أن التسليم القوي بها في اطار الخطاب لا يكون كذلك ما لم تشفع بأدلة وأنساق برهانية تدعمها، والافتراضات أمّا تحدد بالقياس العادي المحتمل)) (19)، ويتمثل ذلك في ردّ ابن عباس حيث سأله عتبة بن ابي سفيان قائلاً: ((ما منع أمير المؤمنين أن يبعثك مكان أبي موسى يوم الحكمين؟ قال ابن عباس : منعه والله من ذلك حاجز القدر، وقصر المدة، ومحنة الابتلاء، أما والله لو بعثني مكانه لاعترضت له في مدارج نفسه، ناقضاً لما أبرم، ومبرماً لما نقض ، أسفّ إذا طار وأطير إذا أسفّ ولكن مضى قدر ، وبقي أسفّ ومع يومنا غد ، والأخرة خير لأمر المؤمنين من الأولى)) (20) فأستعمل ابن عباس في ردّه مفاهيم تحدد بالقياس العادي، مثل أما والله لو بعثني مكانه لاعترضت له في مدارج نفسه، ناقضاً لما أبرم ، ومبرماً لما نقض أسفّ إذا طار، وأطير إذا أسفّ، ولكن بقي أسفّ ومع يومنا غد، وهي أمور تتعلق بالمشاهدة العينية المادية، فعمد ابن عباس إلى استعمالها في الأمور المحسوسة، وهذا من قبيل الافتراض الإقناع المتلقي بما يريد قوله، وقد أطره بحجة سابقة ولاحقة، فالسابقة هو أن القدر، وقصر المدة التي أراد بها الدنيا



في تقديم ابن عباس وابتعائه بدل أبي موسى، فلو تم ابتعاث ابن عباس لكان في محنة الابتلاء، ولوقف ضد معاوية (لاعتزضت له في مدارج نفسه، ناقضاً لما ابرم، ومبرماً لما نقض) وهذا ما أبعد عنه تلك المحنة والابتعاث، والحجة التي ساقها لعدم رغبته في ذلك المقام هو قصر الدنيا لصاحبها، والأخرة خير منها، وأن الأيام سريعة التلاشي والانتفاء، وهذه إشارات فلسفية صيغت بأسلوب بلاغي حجاجي، أراد به ابن عباس إثبات قوله في عدم توليه ذلك المقام القيادي، وقد سرده بأسلوب متدرج بتقديم الافتراضات والبراهين؛ ليصل إلى إقناع المخاطب وإثبات دعواه، من أن المانع ليس معاوية فقط، بل إن للقدر والرعاية الربانية أثراً في ذلك، مؤثراً ذلك بأمثلة من الواقع المحسوس لبلوغ الغاية.

رابعاً : القيم : تحتل القيم مرتبة عليا وتتنزل منزلة سامية ، اذ عليها يدور الحجاج وبهدها يتوجّه، فما يضعه المحاج من مقدمات إنما مآله إلى تثبيت قيم تكون راسخة في الذهن ليُعتقد فيها ويُقتنع بها(21) ، ((فهي التي يعول عليها في جعل السامع يُدعن لما يُطرح عليه آراء، والقيم نوعان : قيم مجردة، وقيم محسوسة، فالمجردة : من قبيل العدل والحق، والمحسوسة : من قبيل الوطن (تونس مثلاً) والكنيسة))(22) ومن شواهد هذه المقدمة ما جاء في ردّ ابن عباس للمغيرة بن شعبة، قال المغيرة : ((أما والله لقد أشرتُ على عليّ بالنصيحة، فأثر رأيه، ومضى على غلواته ، فكانت العاقبة عليه لا له، واني لأحسب أن خلفه يقتدون بمنهجه))(23)، فقال ابن عباس : ((كان والله أمير المؤمنين عليه السلام أعلم بوجوه الرأي، ومقام الحزم، وتصريف الأمور، من أن يقبل مشورتك فيما نهى الله عنه، وعثف عليه ، قال سبحانه وتعالى : ﴿ لا تجدُ قوماً يؤمنون بالله واليوم الآخر يودون من حأ الله ورسوله، ولو كانوا آباءهم أو أبناءهم أو إخوانهم أو إخوانهم أو عشيرتهم ﴾ ولقد وقفك على ذكر مبين وآية متلوّة، قوله تعالى ﴿ وما كنتُ متخذ المضلين عضداً ﴾ وهل كان يسوغ له أن يُحكّم في دماء المسلمين، وفي المؤمنين، من ليس بمؤمن عنده، ولا موثوق به في نفسه؟ هيهات هيهات، هو أعلم بفرض الله وسنة رسوله أن يُطن فلان ما يُظهر الاللتقية، ولات حين تقية، مع وضوح الحق، وثبوت الجنان، وكثرة الانصار، يمضي كالسيف المصلت في أمر الله، مؤثراً لطاعة ربه والتقوى على آراء أهل الدنيا))(24)، أفاد ابن عباس من مجموعة قيم محسوسة ومجردة مثل الأعلمية (أعلم بوجوه الرأي) و الحزم (ومعاهد الحزم) والخبرة في ذلك (وتصريف الأمور والالتزام) من أن يقبل مشورتك فيما نهى الله عنه ، وعثف عليه) ثم المعرفة بأمر الدين والسنة (هو أعلم بفرض الله وسنة رسوله) منتقلاً إلى المجردة (يمضي كالسيف المصلت في أمر الله) وسانداً هذه القيم بحجج قرآنية دالة (وما كنتُ متخذ المضلين عضداً) فاختيار هذه القيم بوصفها وسيلة للاحتجاج على أهمية الموقف والموضوع، والدراية في أمور المسلمين التي يمتلكها علي (عليه السلام) وهو اختيار سليم لمناسبتها المعنى المراد إيصاله من جهة، ومن جهة أخرى لما لهذه القيم من قدرة على التأثير والإقناع في ذات المتلقي.

خامساً : الهرميات : وهي ((أن القيم ليست مطلقة وإنما هي خاضعة لهرمية ما ، واتصلت بسلمية معينة، والمحاج يُراتب بين القيم، ويقدم قيمة على أخرى، والهرمية بعد ذلك نوعان : مجردة مثل اعتبار العدل افضل من النافع، ومادية محسوسة : كاعتبار الانسان أعلى درجة من الحيوان والآله أعلى درجة من الإنسان))(25)، ومن شواهد الهرميات قول ابن عباس حين انتفض منه ابن الزبير متهماً إياه بإصدار الفتاوى دون علم، وحمله لمال المسلمين دون إذن، وقتاله أم المؤمنين وساخراً منه للعمى الذي أصابه، فردّ عليه ابن عباس قائلاً : ((يابن الزبير:

قد أنصف القارة من رامها إنا إذا ما فئة نلقاها

نردُّ أولاهنا على أخراها حتى تصير حرضاً دعواها

يابن الزبير: أما العمى، فان الله تعالى يقول : ﴿ فإتھا لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التي في الصدور ﴾، وأما فتياي في القملة والنملة، فإن فيها حكيمين لا تعلمهما أنت ولا أصحابك، وأما حملي للمال، فإنه كان مالاً جبيناه، فأعطينا كل ذي حق حقه، وبقيت بقية هي دون حقتنا في كتاب الله، وأما قتالنا أم المؤمنين، فبنا سُميت أم المؤمنين، لا بك ولا بأبيك، فأطلق أبوك وخالك إلى حجاب مده الله عليها، فهتكها عنها، ثم اتخذها فتنة يقاتلان دونها (...)) (26)، فكما هو ملحوظ أن القيم التي ساقها ابن عباس جاءت حسب الأهمية والأولوية لدى المتلقي، فأبتدأ بقضية ردّ الشبهات والفسق في الدين، والذي تمثل في النص الشعري، وهو قيمة محسوسة اعتبارية، ثم انتقل إلى القيمة الأخرى وهي العمى وعمى البصيرة والتي اسندها بحجة قرآنية، مستطرداً في إثبات دعواه بإثبات القيمة الأخرى المتعلقة بالفتوى ومدى مقدرته الفقهية على إصدار الفتوى، ونفيها عن ابن الزبير، منتقلاً إلى القيم المجردة



الجزئية الأقل شأناً) وأما حملي للمال فانه كان مالاً جبيناه، فأعطينا كلّ ذي حق حقه) ساندأ ذلك إلى دليل برهاني قرآني (وبقيت بقية هي دون حقنا في كتاب الله، فأخذناها بحقنا) مستطرداً بسوق القيم الحجاجية المجردة وهي قتال أم المؤمنين، (فبنا سُميت أم المؤمنين، لا بك ولا بأبيك) محاجاً بصلة القرابة والحفاظ على حرمة آل الرسول وبيته، نافياً ذلك عن الزبير وطلحة) فأنطلق أبوك وخالك إلى حجاب مدّه الله عليها، فهتكاه عنها، ثم اتخذها فتنة يقاتلان دونها) فابتدأ بقضية مهمة وهي نفي الفسق في الدين وإثبات البصيرة فيه ، وذلك حين وجه ابن الزبير تلك التهمة لهم ، وهذه القيمة الأساس، ثم انتقل إلى قيم وقضايا فرعية كقضية المال وقتال أم المؤمنين، وهذا التسلسل في سلم القيم المستعملة في خطاب ابن عباس يزيد من قوة الحجاج ليزيد في المقابل من قوة الإقناع عند الآخر، ولهذا يقول صاحب الجمهرة: ((عندما عاد ابن الزبير إلى أمه سألتها عن بردى عوسجة، فقالت: ألم أنهك عن ابن عباس، وعن بني هاشم؟ فأنهم كعم الجواب إذا بدوها)) (27)، فهذه القيم التي ساقها ابن عباس بتراتبية أتاحت له القوة الحجاجية التي من خلالها استطاع نفي إدعاء الآخر، وإقناع متلقيه.

سادساً: المواضع : تُعرّف المواضع عند اليونانيين القدماء بأنها مخازن الحجج(28)، بمعنى ((الروافد التي يقصدها المحاج، وقد قسمت على الكم ، والكيف، ومواضع آخر)) (29)، فالنسبة لمواضع الكم ((هي المواضع التي تثبت أن شيئاً ما أفضل من شيء آخر كمية)) (30)، ومن شواهد هذا النوع ما ورد في خطاب ابن عباس حينما فضّل معاوية بني أمية على بني هاشم، فردّ ابن عباس قائلاً : ((أقول ليس حي يفخرون بأمر إلا وإلى جنبهم من يشركهم إلا قريشاً، فأنهم يفخرون بالنبوة التي لا يشاركون فيها، ولا يساؤون بها، ولا يدفعون عنها، وأشهد أن الله لم يجعل محمداً من قريش الا وقريش خير البرية، ولم يجعله في بني عبدالمطلب إلا وهم خير بني هاشم، يريد أن يفخر عليكم الا بما تفخرون به، إن بنا فتح الأمر وبنا يُختم، ولك ملك معجل، ولنا ملك مؤجل، فإن يكن ملككم قبل ملكنا فليس بعد ملكنا ملك، لأننا أهل العاقبة والعاقبة للمتقين)) (31)، في النص المزبور حجاج واضح ساقه ابن عباس للرد على معاوية حين فاضل بين بني أمية وبني هاشم، ومدار هذا الحجاج هو الفرق بين القبيلتين في المكتنزات الكمية، وهي درجات في المحصلة، حيث ذكر ابن عباس مفاخر قريش وهاشم رأسها، ومفاخرتهم الأولى هي النبوة ، وهذه خصيصة انفردت بها، وأن محمداً منهم، وبذلك هم خير البرية، وعبدالمطلب منهم، وهم خير بني هاشم وبهم فتح الاسلام، وبهم يختم، وملكهم دائم وإن كان مؤجل، وليس بعده ملك ولهم العاقبة، فوازن ابن عباس بين بني أمية وهاشم من حيث الأصل والشرف والرفعة والدين والنبوة، والملك الدائم قبالة الملك الزائل الذي تمتع به حين مفاضلته، وهنا اعتمد ابن عباس معيار الكمية في بيان الأفضلية احتجاجاً على ادعاء معاوية وعلى من يجادل في من وهبه الله النبوة والرسالة، وكرّمهم بين القبائل العربية والإسلامية .

أما مواضع الكيف، فهي ضد الكم، تتسم بوحدها الشكلية، وهي ضد الجمع؛ إذ أنها تستمد قيمتها بمعارضتها للمشترك بمعنى اهتمامها بقضية واحدة دون غيرها، مثل الحقيقة التي يعرفها الله عكس آراء البشر المختلفة فيها، بمعنى آخر أن مواضع الكيف تحمل معنى الحقيقة ثابتة لا يمكن زعزعتها(32) ومثال ذلك حينما وجّه معاوية سؤالاً إلى ابن عباس نصّه: ((فما تقول في عليّ؟ قال : رضي الله عن أبي الحسن، كان والله علم الهدى، وكهف التقى، وطود الندى، وكهف العلا، متمسكاً بالعروة الوثقى، خير من آمن واتقى ... وأكثر من شهد النجوى، للإسود قتال، وفي الحروب ختال، ثم قال معاوية: فما تقول في أبيك العباس؟ قال : كان صنو نبي الله (صلى الله عليه وآله وسلم) وقرّة عين صفي الله، صاحب البيت والسقاية والمشاعر والتلاوة ، فقال معاوية: يابن عباس، أنا أعلم أنك كلماني أهل بيتك، قال : ولم لا أكون كذلك وقد قال رسول الله (صلى الله عليه وآله وسلم) : اللهم فقّه في الدين، وعلمه التأويل، ثم قال ابن عباس: يا معاوية إن الله جل ثناؤه، وتقديست اسماؤه، خصّ محمداً (صلى الله عليه وآله وسلم) بصحابة أثروا على الأنفس والأموال، وبذلوا النفوس دونه في كل حال ووصفهم الله في كتابه فقال : ﴿رُحَمَاءٌ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكْعًا سُجَّدًا يُبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا، سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ ((33)، نلاحظ ردود ابن عباس المتسائلة في إبراز سمات وصفات ابن عمّه علي وأبيه العباس (عليهما السلام) هو التركيز على قضية واحدة وهو المنهج الديني الذي اتسم به الاسمان، وما قدماه من تضحيات وثبات للحفاظ على هذا المركز الرئيسي (الدين) ساندأ تلك الكيفية بنص قرآني برهن على مكانتهما الدينية العليا، هذا ما سمح له أن يُثبت قوله بأنهم أصحاب الرسول الأقرب، وهذه حقيقة لا تُنتزع أو تنتزع، ويلحظ في عباراته المذكورة أن ابن عباس انطلق في حجاجه من مقدمات رمى بوساطتها إقناع المتلقي بما يريد إيصاله، وهذه بلاغة في إقناع الآخر، ولذلك أشهر معاوية عن إقناعه حين أفصح لابن عباس قائلاً: ((أنا أعلم أنك كلماني أهل بيتك)) (34)، وبذلك تظهر القيمة الحجاجية لمواضع الكيف حين جعلها منطلقات حجاجية تُسند القول وترسم طريق الهدف للوصول إلى الغاية وهي إقناع متلقيه.



المبحث الثاني: التقنيات الحجاجية :

ذكرنا سالفا أنّ "بيرلمان وتيتيكاه" تخطى الآليات والطرق التقليدية في البلاغة القديمة والحديثة اللتين وجهتا عنايتهما آنذاك نحو الصور الجمالية والزخرف البديعي من جهة ، والسفسطة التعبيرية من جهة أخرى ، فارتأيا أن يجعلها حجاجهما بلاغيا يحمل الحثثيات العقلية والمنطق من جهة واللغة وقواعدها من جهة أخرى ، فضلا عن الاستعارات المجازية المادية والمحسوسة ، فالبلاغة الجديدة عندهما ((تختلف عن أي نظرية بلاغية غير حجاجية، كما أنها تختلف مع التراث الديكارتي الذي لا يرى العقلانية إلا في البرهان المنطقي. لقد حاول (برلمان) أن يستعيد بطريقته الخاصة المحاولة التي شرع فيها أرسطو، الذي كان يبحث عن تحديد قواعد بناء المعرفة المشتركة. وقد اعتمد (برلمان) في عمله هذا على البلاغة التي جدد فيها تصنيف الحجج))⁽³⁵⁾، ورأى أن ((غاية كل حجاج أن يجعل العقول تُدعَن لِمَا يُطَرَح عليها من آراء، أو أن تزيد في درجة ذلك الإذعان. فأنجع الحجاج ما وُقِّق في جعل حدة الإذعان تقوى درجتها لدى السامعين بشكل يبعثهم على العمل المطلوب إنجازه أو الإمساك عنه، أو هو ما وُقِّق على الأقل في جعل السامعين مهيبين للقيام بذلك العمل في اللحظة المناسبة))⁽³⁶⁾ ، وبما أن موضوع الحجاج عنده وعند زميلته "تيتيكاه" دراسة الفثيات الخطابية التي تُمكن من الحصول على موافقة العقول على الأطروحات التي تُعرض عليها أو دعم موافقتها ، وهذا يعني أنّ هناك علاقة جامعة بين الحجاج والخطاب، وأنّ كليهما بعدان متلازمان ، إذ يوفر الخطاب مجموعة من التقنيات والأساليب التي تسهم في بناء قواعد الحجاج.

وأما التقنيات الحجاجية فعند "بيرلمان وتيتيكاه" على نمطين ، الأول الاتصال والثاني الانفصال ، ويعني بها كل ((ما يتم به فهم الخطط التي تقرب بين العناصر المتباعدة في الأصل لتمنح فرصة توحيدها من أجل تنظيمها، وكذلك تقويم كل منها بواسطة الأخرى سلبا أو إيجابا وحجج الاتصال ((تعني الآليات التي تقرب بين العناصر المتباينة، وتتيح إقامة ضرب من التضامن بينها وذلك لوضعها في بنية واضحة وشكل موحد، أما حجج الانفصال فهي تعمد إلى إحداث قطيعة بين عناصر موحدة، وإفساد الترابط الموجود بينها، إذ يظهر هذا الفصل عادة بواسطة انعدام الانسجام بين هذه العناصر))⁽³⁷⁾، وتقسّم حجج الاتصال على ثلاثة صور: الحجج شبه المنطقية، والحجج المؤسسة على بنية الواقع، والحجج المؤسسة لبنية الواقع، وقبل الولوج في مصاديق هذه الحجج في خطاب عبد الله بن عباس لا بدّ من الوقوف على مضمونها ومدلولها .

أ- (الحجج شبه المنطقية): هي ((حجج تدّعي قدرا محددًا من اليقين من جهة أنها تبدو شبيهة بالاستدلالات الشكلية المنطقية أو الرياضية، ومع ذلك فإن من يخضعها إلى التحليل ينتبه في وقت قصير إلى الاختلافات بين هذه الحجج والبراهين الشكلية؛ لأن جهدا يبذل في الاختزال أو التدقيق فحسب – يكون ذا طبيعة لا صورية- يسمح بمنح هذه الحجج مظهرا برهانيا، ولهذا السبب ننعثها بأنّها شبه منطقية))⁽³⁸⁾ ويقوم هذا النوع من الحجج على البنى المنطقية مثل التناقض ، والتبادل ، والتماثل ، وقانون التعدية، كما تعتمد العلاقات الرياضية مثل علاقة الجزء بالكل وعلاقة الأصغر وعلاقة التواتر⁽³⁹⁾، وحجة التناقض : هي تلك الحجة التي تحمل أطروحتين متناقضتين أو متعارضتين في الأوان ذاته (كقولنا زيد الأبكم شهد بالحق) هنا حجة متناقضة ومردودة على من احتج بها ؛ لكون زيد أبكم في أصل تكوينه.

ونلمس هذه الحجة في خطاب ابن عباس في وصفه عمرو بن العاص عندما حرض معاوية على المبارزة وقتال أمير المؤمنين عليه السلام : ((فقال ابن عباس يا بن النابغة ضل والله عقلك وسفه حلمك ونطق الشيطان على لسانك هلا توليت ذلك بنفسك يوم صفين حين دعيت نزال وتكافح الأبطال وكثرت الجراح وتقصفت الرماح وبرزت إلى أمير المؤمنين مصولا فأتكفأ نحوك بالسيف حاملا فلما رأيت الكواثر من الموت أعددت حيلة السلامة قبل لقائه، والانكفاء عنه بعد إجابة دعائه، فمنحته رجاء النجاة عورتك... ثم أشرت على معاوية كالناصح له بمبارزته، وحسنت له التعرض لمكافحته، رجاء أن تكفني مؤنته، وتعدم صورته، فعلم غلّ صدرك، وما انحنت عليه من النفاق أضلعك، وعرف مقر سهمك في غرضك، فأكفف غرب لسانك، واقمع عوراء لفظك...))⁽⁴⁰⁾، تلمس في أطروحاته الخطابية أعلاه تقنية التناقض وسيلة اتخذها في حجاجه لابن العاص- فرسم صورة سردية تحدث بها عن يوم صفين والكيفية التي هرب بها من ساحة النزال ، ولم يكتف ابن عباس بذلك ، بل انتقل إلى صورة أخرى تحمل في طياتها أسلوبا تعجبيا من قدوم ابن العاص على إقناع معاوية لمبارزة أمير المؤمنين علي عليه السلام ، ثم



يعرّج على دهاء معاوية في كشف ابن العاص ورده عن مبتغاه ، فالحجة التي اعتمدها ابن عباس بنية منطقية قائمة على تناقض ابن العاص في فعله ، وبذلك توسل إلى سبر تأويلات مقاصده و إقناع جمهوره المتلقي.

ومن التقنيات الأخرى التبادل : و((تتمثل هذه الحجج في معالجة وضعيتين، إحداهما بسبيل من الأخرى معالجة واحدة، وهو ما يعني أن تينك الوضعيتين متماثلتان وإن بطريقة غير مباشرة))⁽⁴¹⁾، فالتبادل حجج تنحصر بين فئتين من الكلام على طريقة المعادلة بين أمرين ، ومثال ذلك في خطاب ابن عباس ما قاله في حوار مع ابن العاص أيضا ((...ذكرت مشاهدك بصفين، فوالله ما ثقلت علينا يومئذ وطأتك، ولا نكتنا فيها حربك، ولقد كشفت فيها عورتك، وإن كنت فيها لطويل اللسان، قصير السنان، آخر الخيل إذا أقبلت، وأولها إذا أدربت، لك يدان: يد لا تبسطها إلى خير، وأخرى لا تقبضها عن شر، ولسان غرور ووجهان: وجه موحش، ووجه مؤنس، ولعمري إن من باع دينه بدنيا غيره لحري أن يطول حزنه على ما باع واشترى، لك بيان وفيك خلل، ولك رأي وفيك نكد، ولك قدر وفيك حسد، وأصغر عيب فيك أعظم عيب في غيرك))⁽⁴²⁾، عمد ابن عباس إلى زيادة درجة إقناع جمهوره المتلقي باستعمال المعادلة الحجاجية والتبادل بين الصفات الذاتية التي يتصف بها عمرو ابن العاص ، فجعلها بين قطبين ، قطب فاسد وقطب صالح ، فقال : طويل اللسان وحاد في الكلام ولكنك قصير السنان لا يصل سيفك خصمك !، ولك وجهان : موحش ومؤنس ، ، وحالك بين اثنين بين الوضوح وبين الخطل والعوج !، وراي فاسد فيه نكد وخطأ ورأي صالح، وبتلك المقارنة التبادلية والبرهنة العقلية احتج ابن عباس على نفاق ابن العاص، مما رفع من قبول المتلقي وإذعانه، وهذه التقنية الحجاجية تدفع((الجمهور على تبني مقتضى واحد، وهذا المقتضى توجهه السلامة المنطقية والأصول الاعتقادية))⁽⁴³⁾ ، وأما الحجة التعديدية فترتكز على أهم معايير القياس الأرسطي (مقدمة صغرى وكبرى ونتيجة) ، وقد ضرب "برلمان" مثلا حولها بقوله "عدو صديقي عدو صديقي ، حيث يدعم الطابع شبه المنطقي في هذه الحكمة ما يمكن أن يستنتج منها وهو صديقي عدو عدوي"، وبمعنى آخر أن قضية ما تتضمن قضية أخرى⁽⁴⁴⁾ ، أو تمرير قضية ما عبر قضية أو قضيتين لتوصيل رسالة معينة للجمهور المتلقي ، ومن مصاديق ذلك في خطاب ابن عباس ما قاله في معاوية ((أقول ليس حي يفخرون بأمر إلا وإلى جنبهم من يشركهم إلا قريشاً، فإنهم يفخرون بالنبوة التي لا يُشاركون فيها، ولا يساوون بها، ولا يدفعون عنها، وأشهد أن الله لم يجعل محمداً من قريش إلا وقريش خير البرية، ولم يجعله في بني عبد المطلب إلا وهم خير بني هاشم،...إن بنا فتح الأمر وبنا يُختم، ولك مُلكٌ مُعجّل، ولنا مُلكٌ مُوجّل، فإن يكن ملككم قبل ملكنا، فليس بعد ملكنا ملك، لأننا أهل العافية، والعاقبة للمتقين"))⁽⁴⁵⁾، وقد مر ذكر هذا النص سالفاً في المنطلقات ، ولتضمنه التقنية التعديدية تم تكريره ، وفيه عداً ابن عباس رسالته الحجاجية والنتيجة التي يريد تبليغها لجمهوره عبر بنيتين صغرى وكبرى ، فالبنى الكبرى ومقدماتها تأسست في النص على المدح والذم ، فالذم بوصفه آل سفيان بأنّ ملكهم معجل في الدنيا ، ومدته تنتهي بنهاية نسلهم ولا شرف لهم ولا نسب رفيع ، وأما المدح فقد برز بوصفه الحسن لقريش وبني هاشم ، وعلى ضوئه تأسست البنى الصغرى ومقدماتها ، وقد تجلّت بمجموعة من المقدمات ، منها مدح قريش ، وقوام ذلك المدح وعماده محمد ﷺ ومدح بني هاشم أيضاً ؛ لكونهم أهل رسول وعشيرته، و أمّا النتيجة التي ينتهي إليها المحاج فهي أنّ بني هاشم هم بداية الملك وختامه ، وملك نهاية الزمان بيد قائمهم والعاقبة الحسنة لهم بوصفهم أئمة المتقين ، وبهذا ضمن المخاطب أطروحته الحجاجية التي تتخلص بأنهم قادة آخر الزمان وهم من يملك بقاع الأرض عبر موضوعي المدح والذم .

ولو نظرنا في الحجة الأخيرة وهي تقسيم الكل إلى أجزائه وإدماج الجزء في الكل ، لوجدنا معناها عند "برلمان وتيتيكاه" قانون شبه منطقي يعتمد المعادلة الرياضية ويستمد ((طاقته الإقناعية من الوصل الذي يحدثه بمبدأ تفضيل الكل على الجزء وهو تفضيل تقضي به طبيعة الأشياء ومبدأ المقايسة الشكلية))⁽⁴⁶⁾، وشاهده في خطاب ابن عباس في حوار له مع ابن الزبير ((والله لقد نشأت ناشئنا مع ناشئة قريش، وإن كنا لقاتلهم إذا قالوا، وخطباءهم إذا خطبوا، وما عدّ مجدّ كمجد أولنا، ولا كان في قريش مجد لغيرنا، لأنها في كفر ماحق، ودين فاسق، وضلة وضلالة في عشواء عمياء، حتى اختار الله تعالى لها نورا، وبعث لها سراجا، فاتجبه طيبا من طيبين، لا يسب بمسبة، ولا يبغى عليه غائلة، فكان أجدنا وولدنا وعمنا وابن عمنا، ثم إن أسبق السابقين إليه، منا وابن عمنا، ثم تلاه في السبق أهلنا ولحمتنا واحد بعد واحد، ثم إن لخير الناس بعده أكرمهم أدبا، وأشرفهم حسبا، وأقربهم منه رحما))⁽⁴⁷⁾، ويلحظ في النص إدماج قريش في بني هاشم، هو إدماج ضمن الجزء بالكل، بوصف الأول مندمج في الثاني واقعا وأصلا من جهة وكما وكيفا من جهة أخرى، فمن الوجهة الكمية الدرجة الرفيعة التي ينماز بها بنو هاشم إذ يفضلون قريشا بفضائل عدة ، منها أن أعظم أهل القول والفصل في قريش من بني هاشم وأفضل خطبائهم منهم، وأن المجد لهاشم وشملت به قريشا ؛ لاندماجها معهم جغرافيا ، ثم إن سيد الأنبياء وآله فيهم فزادهم فخرا ، وبهذه



التقنية الحجاجية الاندماجية وبالعلاقات الرياضية شبه المنطقية احتج بن عباس بالأفضلية على ابن الزبير وآله، وبهذا الكم من الشواهد والتقنيات تخلص الحجج شبه المنطقية لننتقل إلى النوع الثاني وهو :

ب- الحجج المؤسسة على بنية الواقع وهي الحجج التي تصنع ترابطاً بين عناصر الواقع الذي يركز إليه من أجل الحجاج. فاستخدام حجة توضح بصورة جلية الرابط بين القضية التي يتم الدفاع عنها وعنصرها مقبولاً سلفاً لدى المتلقي، هذا الرابط يجب أن يكون معطى مسبقاً، ولا يتم خلقه وإيجاده عند الحاجة (48) ، وتقسّم هذه الحجج على قسمين : اتصال تتابعي بين الواقعة وأسبابها والنتائج المؤدية إليها. واتصال تواجدي بين الشخص وأعماله ((و((يتمثل بعلاقة الشخص بأفعاله، وما تركه من تأثير على السامع، وهي تلعب دوراً متميزاً في الإقناع)) (49) ، وأما الاتصال التتابعي فعلى ثلاثة أنماط ، أولها الوصل السببي والثاني التبذير و الثالث الاتجاه، فالوصل السببي هو تلك الحجة التي توثق نتيجة معينة لوجود سبب حقيقي ، وشاهدها في خطاب عبد الله بن عباس قوله لعمر بن العاص : ((حج عمرو بن العاص فمر بعبد الله بن عباس، فحسده مكانه، وما رأى من هيبة الناس له، وموقعه من قلوبهم، فقال له يابن عباس: "مالك إذا رأيتي وليتني القصرة، وكان بين عينيك دبرة، وإذا كنت في ملأ من الناس كنت الهوهة الهمة؟ فقال ابن عباس: "لأنك من اللئام الفجرة، وقريش الكرام البررة، لا ينطقون بباطل جهلوه، ولا يكتمون حقاً علموه، وهم أعظم الناس أحلاماً، وأرفع الناس أعلاماً، دخلت في قريش ولست منها، فأنت الساقط بين فراشين، لا في بني هاشم رحلك، ولا في بني عبد شمس رحلتك، فأنت الأثيم الزنيم الضال المضل)) (50) استعمل في نصه المذكور تقنية الاتصال التتابعي المؤسسة على بنية الواقع ، وقد احتج على ابن العاص بالأسباب الحقيقية ونتائجها ، فذكر ابن عباس أن من الأسباب التي أنتجت إدياره وإعراضه عن ابن العاص ؛ أنه من اللئام الفجرة ، داخل في قريش و ليس منها ، أم بذنوبه و زعيم دعي ليس له أصل ، وضال عن سبيل مضل لعباد الله، فكان نتاج ذلك أن ينبذ من خيار القوم وسادتهم – بني هاشم-

ومن الحجج الأخرى حجة التبذير ((يجب أن لانفهم مصطلح التبذير المنعوت به هذا النوع من الحجج الفهم الأول، الذي يردّه الحجج الزائدة، والبراهين الرابية على الحد، وإنما يجب فهم التبذير بالمعنى الذي تتحدد بمقتضاه النجاعة الحجاجية والقوة الإقناعية)) (51) ، وبمعنى آخر أن يجنح المحاجج إلى أسلوب الأطناب في سرد الوقائع والأمثلة والشواهد ، ذلك السرد الذي ينأى بعيداً عن الإطالة والإسهاب، حاملاً في طياته نكت البلاغة ورسالة التركيب ، ومن شواهد ذلك مفاخرة عبد الله بن الزبير وعبد الله بن عباس: وهذا جزء من حوارهما ((...فقال ابن عباس: أراك قصدت قصدي، فإن شئت أن أقول قلت، وإن شئت أن أكف كفتت قال: بل قل وما عسى أن تقول؟ ألسنت تعلم أن أبي الزبير حوارى رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ وأن أمي أسماء بنت أبي بكر الصديق ذات النطاقين وأن عمتي خديجة سيدة نساء العالمين؟ وأن صفية عمة رسول الله صلى الله عليه وسلم جدتي؟ وأن عائشة أم المؤمنين خالتي، فهل تستطيع لهذا إنكاراً؟)) (52) ، رد ابن عباس عليه ((لا، ولقد ذكرت شرفاً شريفاً، وفخراً فافخراً، غير أنك تفاخر من بغيره فخرت، وبفضله سموت، قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنك لم تذكر فخراً إلا برسول الله صلى الله عليه وآله، وأنا أولى بالفخر به منك. قال ابن الزبير: لو شئت لفخرت عليك بما كان قبل النبوة. قال ابن عباس: قد أنصف القارة من رامها، نشدتكم الله أيها الحاضرون، أعبد المطلب أشرف أم خويلد في قريش؟ قالوا: عبد المطلب. قال: أفهاشم كان أشرف فيها أم أسد؟ قالوا: بل هاشم. قال: أفعبد مناف أشرف أم عبد العزى؟ قالوا: عبد مناف، فقال ابن عباس: تنافرنى يابن الزبير! وقد قضى ... عليك رسول الله لا قول هازلٍ...)) (53) ، والنص طويل جداً نختصره إبعاداً للإطالة والإسهاب ، ويتضح عبره المضمون الكمي الذي رد به ابن عباس على مفاخرة ابن الزبير، وكأنه يريد إيصال قصدية معينة تثير المتلقي وتجلبه على الاقتناع ، إذ يعمل المحاجج على تنفيذ رأي ما وإنهاء زعم معين وإصلاح عوج أو مغالات، وهذا ما لوحظ في خطاب ابن عباس أعلاه ، إذ فند بحججه الكثيرة ما قاله ابن الزبير عن نفسه مفتخراً بقربه من رسول الله وزوجه خديجة وعمة الرسول صفية ، فرد عليه قوله هذا ، بطريقتين ، الأولى سلطة الرسول وهو الأقرب لابن عباس من ابن الزبير ، والثاني باستعماله فن الحوار وأسلوب المساءلة وقد أشرك الجمهور المتلقي في ذلك (نشدتكم الله أيها الحاضرون، أعبد المطلب أشرف أم خويلد في قريش؟ قالوا: عبد المطلب. قال: أفهاشم كان أشرف فيها أم أسد؟ قالوا: بل هاشم. قال: أفعبد مناف أشرف أم عبد العزى؟ قالوا: عبد مناف) ، واستعماله أسلوب السؤال وتكراره في كل مرة زيادة منه لتأكيد حجته ودحض حجة الخصم ، ولشد المتلقي وإقناعه بأطروحاته.

ويقابل الاتصال التتابعي الاتصال التواجدي ، ويتعلق هذا النوع من الحجج بالشخص وأعماله وتقنيته بالسلطة ، فالأول يعكس ((علاقة الشخص بأفعاله، وما تركه من تأثير على السامع، وهي تلعب دوراً متميزاً في زيادة



(الإقناع))⁽⁵⁴⁾ ، وتزخر خطابات ابن عباس بهذا النوع من الحجج ، فكثيرا ما يذكر أعماله كنوع من الفخر ونقض الطرف الآخر ، إذ له باع طويل في تفسير القرآن اعتمادا على ما نقله من روايات وأحاديث نبوية شريفة ، فضلا عن معرفته وإتقانه لعلم الفقه ومن شواهد ذلك استشهاده بحديث رسول الله ﷺ حينما مدح نفسه : ((قضى لنا رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ بِالْفَضْلِ فِي قَوْلِهِ: "ما افترقت فرقتان إلا كنت في خيرهما" فقد فارقتك من بعد قصي بن كلاب، أفنحني في فرقة الخير أم لا؟ إن قلت: نعم، خصمت، وإن قلت: لا، كفرت، فضحك بعض القوم، فقال ابن الزبير: أما والله لولا تحرمك بطعامنا يابن عباس لأعرتك جبينك قبل أن تقوم من مجلسك. قال ابن عباس: وَلِمَ أَبْطَلُ؟ فالباطل لا يغلب الحق، أم بحق؟ فالحق لا يخشى من الباطل))⁽⁵⁵⁾، فيلاحظ في النص اعتماد ابن عباس في حجاجه مع ابن الزبير قضيتين : الأولى على ذاته وعمله في الإسلام ومركزيته في قريش وقبائل العرب عامة ، أما الثانية فاستعمال قول رسول ، عندما جعله في فرقة الخير ، وقد ذكر ذلك الحديث في خطابه المذكور ، وهو جزء من أعماله إذ يعد ابن عباس من الرواة الثقة لحديث رسول الله حتى أنه لُقِبَ ببحر الأمة .

وإذا ما انتقلنا إلى النوع الثاني من الاتصال التواجدي فسند السلطة وأنماطها إحدى الوسائل والتقنيات المعتمدة في رصانة حجية الخطاب ، وتتمظهر بأشكال عدة ، منها سلطة العقل ، وسلطة الدين وسلطة اللغة وسلطة المقدسات وسلطة العلم وإلى آخره من القوى المعتمدة في إثبات حقيقة أو جدلية معينة ، لذلك وصفت بأنها ((علاقة قوى، أو أن كل علاقة قوى هي على الأصح علاقة سلطة))⁽⁵⁶⁾ ، فهي بذلك قوى نافذة بالغة التأثير في جذب الجمهور المتلقي وصناعة الآليات اقتناعه أو إذعانه للاقتناع.

ومن شواهد السلطة في خطاب ابن عباس ، السلطة العقلية التي تمظهرت بحواره المبني على أسس منطقية وعلاقات رياضية وبراهين استدلالية وقد تجلى ذلك في ثنايا البحث ننأى عن تكرارها إبعادا للإطالة والإسهاب ، كما برزت السلطة النقلية بنقله روايات وأحاديث لرسول الله ﷺ ، بوصفها كلاما متأثر معتمدا في الخطاب ومقتنعا في الحجة ، ومنه ما قاله ابن عباس ناصحا معاوية بعدم محاربة بني هاشم: ((فلتكونن منهم بحيث أعددت ليلة الهرب فرسك، وكان أكبر همك سلامة حشاشة نفسك، ولولا طعام من أهل الشام وقوك بأنفسهم، وبدلوا دونك مهجهم، حتى إذا ذاقوا وخز الشفار، وأيقنوا بطول الدمار، رفعوا المصاحف مستجيرين بها، وعاندين بعصمتها، لكنت شلوا مطروحا بالعراء، تسفي عليك رياحها، ويعتورك ذنابها، وما أقول هذا أريد صرفك عن عزيمة، ولا إزالتك عن معقود نيتك، لكن الرحم التي تعطف عليك، والأواصر التي توجب صرف النصيحة إليك))⁽⁵⁷⁾، يتحدث النص أعلاه عن رد ابن عباس على معاوية عندما نوى الأخير إقامة حرب أخرى وأخذ الثأر لقومه، فعمل ابن عباس على توظيف تقنية الراوية – رواية الحدث- بوصفها سلطة يذعن لها الخصم وإستراتيجية فعالة في الإقناع والزحزة عما يروم فعله ، مذكرا إياه بحرب صفين وما جرى بها من أحداث ، ومع أنه لم يذكر تلك الأحداث بصورتها المعروفة إلا أنه أشار إليها بالحدث الأشهر والصورة الرمزية الأعلى تأثيرا ، وهي (رفع المصاحف) التي غيرت نمط الحرب من القتال إلى التحكيم آنذاك ، وكأنه همز له بلفظ رفع المصاحف إشارة منه للنكايه التي حصلت لهم بحرب صفين وكيف فروا فرار العبيد أمام علي بن أبي طالب عليه السلام وجيشه ، ولولا إستراتيجية الخداع هذه لم ينج منهم أحدا ، وبذلك خلقت تلك السلطة جمالية الحجاج وبلاغته العالية .

ومن نماذج السلطة أيضا ، سلطة المقدس التي تمظهرت كثيرا في خطاب ابن عباس، لاسيما سلطة الرسول الأكرم ﷺ ، وسلطة بني هاشم ، ومن شواهد ذلك : ((قال ابن عباس: لا، ولقد ذكرت شرفا شريفا، وفخرا فاخرا، غير أنك تفاخر من بفخره فخرت، وبفضله سموت، قال: وكيف ذلك؟ قال: لأنك لم تذكر فخرا إلا برسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ، وأنا أولى بالفخر به منك. قال ابن الزبير: لو شئت لفخرت عليك بما كان قبل النبوة. قال ابن عباس: قد أنصف القارة من رامها، نشدتكم الله أيها الحاضرون، أعبد المطلب أشرف أم خويلد في قريش؟ قالوا: عبد المطلب. قال: أفهاشم كان أشرف فيها أم أسد؟ قالوا: بل هاشم. قال: أفعبد مناف أشرف أم عبد العزى؟ قالوا: عبد مناف))⁽⁵⁸⁾، تمظهرت في الخطاب المذكور سلطتان عليان ، سلطة الرسول الكريم محمد ﷺ ، وسلطة بني هاشم سادة العرب ، وقد وظفها ابن عباس في خطابه وسيلة ليدفع بها حجة ابن الزبير الذي ادعى قربته من رسول الله بخديجة إذ إنها عمته وصفية عمه رسول الله صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ جدته وأن عائشة أم المؤمنين خالته، فرد عليه ابن الزبير زعمه بسلطتين أقوى مما ذكر ، وهما الرسول وبنو هاشم ، وجعل تلك المحاجة السلطوية على غرار الحوار والمساءلة، جاعلا من الجمهور المتلقي محكما فيما حاجج ، لاسيما أنه أقرب إلى رسول الله ﷺ من ابن الزبير ، وأشرف حسبا ونسبا ، وبذلك ألجم لسانه وأفحم حجته. ونكتفي بهذا القدر من الحجج المؤسسة على البنية الواقع لننتقل إلى النمط الأخير وهو الحجج المؤسسة لبنية الواقع.



١. فالحجج المؤسسة لبنية الواقع: تعمل على الربط بين وقائع متعايشة ومتتابة⁽⁵⁹⁾ وتحويل الحالات المفردة إلى حالات عامة ، وتضم هذه الحجة أصناف أخرى من الحجج منها : (المثل، والشاهد ، والتمثيل ، والأنموذج)، وسنسلط الضوء على المثل والشاهد والتمثيل ، وقد تجسد المثل في إحدى مقولاته عندما رد على ابن الزبير : ((واعجبا كل العجب لابن الزبير! يعيب بني هاشم، وإنما شرف هو وأبوه وجده بمصاهرتهم، أما والله إنه لمصلوب قريش، ومتى كان العوام بن خويلد يطعم في صفة بنت عبد المطلب؟ قيل للبعث: من أبوك يا بعل؟ فقال: خالي الفرس" ثم نزل))⁽⁶⁰⁾، اتخذ المثل في النص أعلاه مسارا حجاجيا يحمل وجوها تأويلية ، تدعو المتلقي إلى سبر أغواره وكشف مقاصده ، فمن تلك الوجوه أن ابن العوام أقل حسبا ونسبا من بني هاشم ، ، والوجه الآخر أنه وضيع يفاخر الناس بما ليس يملكه من الفضل ، ويلصق نفسه بمن هم أعلى منه شأنًا ورفعة وهو ليس منهم برحم قوي يدعو لهذا الإلصاق ، إما المقاصد التي خرج فيها النص فهي الإهانة والتوبيخ والاستهزاء ، ومن هنا فإن المثل وهو الظاهرة المفردة صنع حالة عامة فتحت آفاقا ومجالات إقناعية تجبل المتلقي على القبول والإذعان.

و أما الحجج الأخرى المؤسسة لبنية الواقع فهي حجة الشاهد ، التي يؤتى بها لتقوية التصديق بقاعدة معروفة وليس التأسيس لقاعدة⁽⁶¹⁾، ولها صور عدة منها الشاهد الشعري ، الذي حضر بصورة واضحة في ردود ابن عباس على معاصريه ، ومنه رده على عبد الرحمن بن أم الحكم عندما افتخر بعبد الرحمن بن الملجم قاتل أمير المؤمنين علي عليه السلام : (("أما والله لقد كرع كأس حتفه بيده، وعجل الله إلى النار بروحه، ولو أبدى أمير المؤمنين صفحته، لخالطه الفحل القطم، والسيف الخنم، ولألعه صابا، وسقاه ساما، وألق بالوليد وعتبة وحظلة ، فكلهم كان أشد منه شكيمة، وأمضى عزيمة، ففرى بالسيف هامهم، ورملمهم بدمائهم، وقرى الذناب أشلاءهم، وفرق بينهم وبين أحبائهم... فإننا لكما قال دريد بن الصمة:

فإننا للحم السيف غير مكره ... ونلحمه طورا وليس بذى نكر

يغار علينا واترين فيشتفى ... بنا إن أصبنا أو نغير على وتر))⁽⁶²⁾، لوحظ في خطاب ابن عباس كثرة استدعائه للشعر بوصفه قرينة إقناعية مؤثرة ، بعد وصف شجاعة أمير المؤمنين في ملاقاته خصمة أدرج بيت ابن الصمة ؛ ليزيد من مقبولية قوله ووضوح قصديته ، فالبيت أوجز مجموعة من المعاني أراد ابن عباس إيصالها في حجاجه ، وهي أنهم لا يخافون ملاقاته الحتوف ولا يهابون الحرب ، فهم أكالون للسيوف ، أعدت نفوسهم إعدادا للمواجهة والثبات غير مكرهين ولا مجبرين على ذلك ، وهذا البيت إفحام لابن أم الحكم الذي تفاخر بأردل القوم نسبا وأقبحهم فعلا ، وبذلك التوظيف الشعري صنع ابن عباس فعلا حجاجيا مؤثرا.

و من حجج الشاهد أيضا -الشاهد القرآني- الذي برز في رده على المغيرة عندما ادعى إسداء النصيحة للإمام علي ، فرد عليه ابن عباس قائلا: ((كان والله أمير المؤمنين عليه السلام أعلم بوجوه الرأي، ومعاهد الحزم، وتصريف الأمور، من أن يقبل مشورتك فيما نهى الله عنه، وعنف عليه، قال سبحانه وتعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ﴾ ولقد وفقك على ذكر مبین وآية متلوة، قوله تعالى: ﴿وَمَا كُنْتُمْ مَتَّخِذِ الْمُضِلِّينَ عَضُدًا﴾ . وهل كان يسوغ له أن يحكم في دماء المسلمين، وفي المؤمنين، من ليس بمأمون عنده، ولا موثوق به في نفسه؟ هيهات هيهات، هو أعلم بفرض الله وسنة رسوله أن يبطن خلاف ما يظهر إلا للتقية، ولات حين تقية، مع وضوح الحق، وثبوت الجنان، وكثرة الأنصار، يمضي كالسيف المصلت في أمر الله، مؤثرا لطاعة ربه والتقوى، على آراء أهل الدنيا))⁽⁶³⁾، يُعد الاستشهاد واستدعاء النص القرآني في خطاب ما من أهم الوسائل التي يعتمد عليها منشئ النص إذا ما ابتغى حصول القبول والاقتناع ، وهذا ما رمى إليه ابن عباس في خطابه إذ اعتمد النص القرآني بوصفه برهانا واستدلالاتا مقدسا لا رفضا لمعناه رصينا في دعم قصديته ، وبيان رأيه ، وبالغ الأثر في إقناع جمهوره المتلقي ، لا سيما ما ذكره عن أمير المؤمنين علي وإيضاح سبب رفضه مشورة المغيرة.

ومن الحجج الأخرى حجة التمثيل ويقصد بها صور البيان ويُعد أداة برهنة لأنه ذو قيمة حجاجية وتظهر هذه القيمة حين ننظر إليه على أنه تماثل قائم بين البني⁽⁶⁴⁾، و شواهد كثيرة في خطاب ابن عباس منها : ((ولا تتعرض لما ليس لك، فإنك كالمغروز في صنف، لا يهبط برجل، ولا يرقأ بيد))⁽⁶⁵⁾ وبرز هذا التمثيل في النص كتقنية حجاجية مؤثرة ، فبعد أن وصف ابن عباس ابن الحكم بأقبح الأوصاف أعطى تشبيها لحاله في القول فقال "كالمغروز في صنف" أي المكبل بالأصفا لا يستطيع أن يحرك قدما أو يدا ، ولا يرتفع درجة .



وإلى هنا ننتهي من التقنيات الاتصالية وأصنافها في الحجاج ، لننتقل إلى النمط الآخر من التقنيات ألا وهي التقنيات الانفصالية التي تؤسس على الفصل بين المعنى الظاهر الزائف والباطن الحقيقي⁽⁶⁶⁾، وهو أقرب ما يكون للمجاز بمعنى أنك تذكر لفظاً معيناً وتصرفه عن معناه الحقيقي إلى معنى آخر ، ومن شواهد ذلك في خطابه رده على معاوية عندما قال له: "فما تقول في علي؟" ((" قال: رضي الله عن أبي الحسن، كان والله علم الهدى، وكهف التقى، ومحمل الحجا، وبحر الندى، وطود النهى، وكهف العلا، للورى داعياً إلى المحجة، متمسكاً بالعروة الوثقى، خير من آمن واتقى، وأفضل من تقمص وارتندي، وأبر من انتعل وسعى، وأفصح من تنفس وقرأ، وأكثر من شهد النجوى -سوى الأنبياء والنبي المصطفى- صاحب القبلتين، فهل يوازيه أحد؟ وأبو السبطين فهل يقارنه بشر، وزوج خير النسوان، فهل يفوقه قاطن بلد؟ للأسود قتال، وفي الحروب ختال، لم تر عيني مثله ولن ترى، فعلى من انتقصه لعنة الله والعباد، إلى يوم التناد))⁽⁶⁷⁾، سلك ابن عباس في خطابه أعلاه ثلثة من التقنيات الانفصالية و قد وظف بها مجموعة من المعاني التي خرج بها من مفهومها الحقيقي الظاهر إلى مفهوم مجازي باطن ، فعلى سبيل المثال لا الحصر حجاجه في تقوى أمير المؤمنين علي ، فاختر أن يصفه بكهف التقى ، والمعنى المراد إيصاله ليس ذلك المكان العيني وإنما مجاز أريد به معنى آخر وهو أنه ملاذ التقوى والإيمان، ثم حاجج بالكرم والجود فقال بحر الندى وهو وصف مجازي يعبر عن الكرم والعطاء اللامحدود، وعند حجاجه على حكمته وعقله وصفه بأنه طود النهى ، والطود هو المكان المرتفع الراسخ ، وأما المعنى المنفصل المحتج به فهو الجبل الراسخ في إيمانه وحكمته وعقله ، وعند حجاجه على ظاهره وباطنه ، قال " خير من تقمص وارتندي بمعنى أنه خير من اتصف بالكمال ظاهراً وباطناً ديناً وخلقاً ، فالقميص مجازاً لباطن الجسد والرداء لظاهره، ... إلى آخره من المعاني ومصاديقها التي برز بها الحجاج بشكل بديع ، وهذه كلها تثير المتلقي وتجذب انتباهه وتصرفه نحو الاقتناع والقبول.

وفي ختام البحث لحظنا أن خطاب ابن عباس خطاباً حجاجياً محضاً فضلاً عن أسلوبه الحوارية وإدخال الجمهور كعنصر أساسي وعضو مشارك في الخطاب ، نجد أنه سلك طرقاً عدة توصل بها إلى اقتناع الجمهور وإثارتهم فكان له مقدمات ابتدأ منها وتقنيات حاجج بها وابتعد بها عن السفسطة والزخرف واعتمد فيها المنطق والعقل والاستدلال والبرهان وبلاغة البيان ، فتارة يبيّن ويؤسس واقع معين ينطلق به من ظاهرة مفردة خاصة إلى عامة ، وتارة يؤسس حجاجه على واقع مؤسس في الأصل ، وهدف ذلك كله اثبات أحقية الحق وبطلان الباطل ونصرة المظلوم وإقامة حدود الله .

الخاتمة

توصل البحث إلى النتائج الآتية:

- ١- انماز خطاب ابن عباس بأسلوب الحوار والتفاعل ، إذ عادة ما يدخل الطرف المتلقي (الجمهور) في خطابه ، حتى أصبح الأخير مكتمل الأركان، من نص ومتكلم ومتلقي ورسالة ووظيفة، وهدف .
- ٢- الناظر في خطاب ابن عباس يجد أنه يحمل أبعاداً حجاجية عدة فضلاً عن الأسلوب الحوارية الذي يتمتع به ، فقد اعتمد أسلوب المسائلة والجواب ، وقد ذكرنا نمطاً منه في متن البحث ، فضلاً عن أساليب أخرى تؤهله أن يكون مادة خصبة لنظريات الحجاج .
- ٣- طبع على خطابه الاستدلال والبرهنة و القواعد المنطقية ، والوقائع ذات البلاغة العالية ، مما دفع الباحث لاعتماد نظرية الحجاج البلاغية عند برلمان وتيتكاه.
- ٤- عادة ما يعتمد إلى اعتماد أسلوب التناقض أو التبادل أو أسلوب التعديّة بمعنى أنّ يعدّي قضية باطنة عبر قضايا ظاهرة ؛ ليمرر عبرها أطروحته المحاجج عليها على وفق الاستدلال والأسس المنطقية.
- ٥- لوحظ على خطابه ميله إلى اعتماد العلاقات الرياضية لاسيما علاقة الكل بأجزائه وإدماج الجزء بالكل ، وغلب الأخير كثيراً على خطابه لاسيما فخره ببني هاشم على قریش رؤيته القائمة على أنّ لا فخر لقریش إلا بهاشم.
- ٦- اعتمد جملة من التقنيات التي تؤسس على واقع وأحداث كنفوذ وأعماله لاسيما وأنه وُصِف بأنه حبر الأمة وعالم بتاريخ قریش ورجالها، مفسر للقرآن فقيه مقاتل في الحروب ، وهذا يدفعه أن يكون محاججاً متمرساً في خطابه ، وهو عينه حجة الشخص وأفعاله عند برلمان .
- ٧- استعمل السلطة ، وهو أهل لها لما يتمتع به من نفوذ بسبب قربه من رسول وبني هاشم ، مع وافر علمه واتسامه بالعقل والنقل وحفظ الروايات والنصوص القدسية، أهله ذلك أنّ يكون محاججاً بارعاً.



- ٨- لم يكتف بما سبق ذكره فقد اعتمد الأمثال والتصوير البياني والشواهد الشعرية وغيرها كتقنية حجاجية يحاجج بها الخصم فيفحمه ويجبله على الاقتناع .
- ٩- والباحث في النص سيجد أنماطاً وأبعاداً حجاجية عدة قد تزيد على تقنيات برلمان ومقدماته ، مما يعني أن النص مبدع لمنطالقاته وتقنياته الحجاجية ، فضلاً عن ذلك لا يعني توافر منطالقات برلمان وتقنياته في خطاب ابن عباس أنه تناص مباشرة معه ، ولكنه توارد فكري عام في النصوص والخطابات عامة ، وهذا التوارد لا يعني وجود نظرية حجاجية عند ابن عباس كنظرية برلمان ، وإنما تعني براعة لغوية وعقلية ومنطقية أهلته لإنجاز نص حجاجي .
- وآخر دعوانا إن الحمد لله رب العالمين.

- (¹) ينظر: تهذيب اللغة: الازهري (مادة حج): 251 / 2 .
- (²) ينظر: المحكم والمحيط الاعظم: ابن سيده(مادة حج) : 482 / 2 .
- (³) لسان العرب : ابن منظور(مادة حج: 9 : 228 / 2 .
- (⁴) كتاب التعريفات : القاضي الجرجاني: 482 .
- (⁵) الخطاب الحجاجي وصلاته الاجتماعية (مقاربة سوسيو لسانية:، أ.م.د. نعمة دهش الطائي: مجلة الاستاد ، العدد 220 ، المجلد الأول 2017: 2.
- (⁶) ينظر: الحجاج أطره ومنطالقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكاها(عبد الله صولة) بحث ضمن كتاب (أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم): 298 .
- (⁷) ينظر: المصدر نفسه: 298 .
- (⁸) ينظر: الحجاج أطره ومنطالقاته وتقنياته من خلال مصنف الحجاج (بحث): 308 .
- (⁹) الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل (بحث في الاشكال والاستراتيجيات): 98 .
- (¹⁰) الحجاج في البلاغة المعاصرة (بحث في بلاغة النقد المعاصر) : 111 .
- (¹¹) جمهرة خطب العرب: احمد زكي صفوت: 93 / 2 .
- (¹²) المصدر نفسه : 105/2 .
- (¹³) جمهرة خطب العرب : احمد زكي صفوت : 116/2 - 117 .
- (¹⁴) كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج - رسائله انموذجاً: 90 .
- (¹⁵) جمهرة خطب العرب : احمد زكي صفوت: 111 / 2 - 112 .
- (¹⁶) المصدر نفسه : 121 / 2 .
- (¹⁷) جمهرة خطب العرب : احمد زكي صفوت: 122 / 2 - 124 .
- (¹⁸) الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل - بحث في الاشكال والاستراتيجيات: 102 .
- (¹⁹) ينظر: النثر الصوفي في ضوء لسانيات النص (اطروحة دكتوراه): 335 .
- (²⁰) جمهرة خطب العرب : احمد زكي صفوت: 100 / 2 .
- (²¹) ينظر : الحجاج والحقيقة وآفاق التأويل - بحث في الاشكال والاستراتيجيات: 103 - 104 .
- (²²) الحجاج أطره ومنطالقاته وتقنياته من خلال منصف الحجاج (بحث): 310 .
- (²³) جمهرة خطب العرب : احمد زكي صفوت : 107 / 2 .
- (²⁴) المصدر نفسه : 108 / 2 .
- (²⁵) النثر الصوفي في ضوء لسانيات النص (اطروحة دكتوراه): 233 .
- (²⁶) جمهرة خطب العرب : احمد زكي صفوت: 125 / 2 .
- (²⁷) جمهرة خطب العرب : احمد زكي صفوت: 126 / 2 .
- (²⁸) ينظر: الحجاج في كتاب المثل السائر لابن الأثير (رسالة ماجستير) : 24 .
- (²⁹) النثر الصوفي في ضوء لسانيات النص(اطروحة دكتوراه) : 23 .
- (³⁰) الحجاج أطره ومنطالقاته وتقنياته من خلال مصنف الحجاج - الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكاها: 311 .
- (³¹) جمهرة خطب العرب : احمد زكي صفوت: 99/2 .
- (³²) ينظر: الحجاج في كتاب المثل السائر لابن الأثير (رسالة ماجستير): 25 .
- (³³) جمهرة خطب العرب: احمد زكي صفوت: 93 / 2 .
- (³⁴) المصدر نفسه: 93 / 2 .
- (³⁵) تاريخ نظريات الحجاج: 42 .
- (³⁶) الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية (عبد الله صولة): 27 .
- (³⁷) تفسير *أنوار التنزيل وأسرار التأويل* للبيضاوي دراسة في ضوء لسانيات النص (رسالة ماجستير): منتهى مجيد : 205 .
- (³⁸) الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه (الدكتوراة سامية الدريدي): 191 .



- (39) ينظر: الحجاج والحقيقة وأفاق التأويل "بحث في الأشكال والاستراتيجيات": 135-136
- (40) جمهرة خطب العرب: 102/2.
- (41) الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكا: 328.
- (42) جمهرة خطب العرب: 112/2.
- (43) الحجاج والحقيقة وأفاق التأويل "بحث في الأشكال والاستراتيجيات": 142.
- (44) ينظر: الحجاج في كتاب المثل السائر لابن الأثير (رسالة ماجستير): 32.
- (45) جمهرة خطب العرب: 99/2.
- (46) الحجاج والحقيقة وأفاق التأويل "بحث في الأشكال والاستراتيجيات": 145.
- (47) جمهرة خطب العرب: 123/2.
- (48) تاريخ نظريات الحجاج: 49.
- (49) الحجاج في درس اللغوي الغربي (بحث): 10.
- (50) جمهرة خطب العرب: 114-113/2.
- (51) الحجاج والحقيقة وأفاق التأويل بحث في الأشكال والاستراتيجيات: 152 – 153.
- (52) جمهرة خطب العرب: 115/2.
- (53) جمهرة خطب العرب: 116/2.
- (54) الحجاج في درس اللغوي الغربي (أ. بوزناشة نور الدين)، بحث منشور في مجلة علوم إنسانية، العدد/ 44، 2010م: 10.
- (55) جمهرة خطب العرب: 117/2.
- (56) استراتيجيات الخطاب مقارنة لغوية تداولية: 221.
- (57) جمهرة خطب العرب: 110/2.
- (58) المصدر نفسه: 116 / 2.
- (59) ينظر: الحجاج في درس اللغوي الغربي (بحث): 10.
- (60) المصدر نفسه: 123/2.
- (61) ينظر: الحجاج في كتاب المثل السائر لابن الأثير (رسالة ماجستير): 34.
- (62) المصدر نفسه: 107/2.
- (63) جمهرة خطب العرب: 108/2.
- (64) الحجاج في كتاب المثل السائر لابن الأثير (رسالة ماجستير): 35.
- (65) جمهرة خطب العرب: 105/2.
- (66) ينظر: النثر الصوفي في ضوء لسانيات النص: 247.
- (67) جمهرة خطب العرب: 192/2.

المصادر والمراجع

- استراتيجيات الخطاب "مقارنة لغوية تداولية"، عبد الهادي بن ظافر الشهري، دار الكتاب الجديد، ط 1، 2004م.
- تاريخ نظريات الحجاج، تأليف فيليب بروتون، وجيل جوتيه، ترجمة الدكتور محمد صالح ناجي الغامدي، ط 1، مركز النشر العلمي، جامعة الملك عبد العزيز، المملكة العربية السعودية، 1432هـ - 2011م.
- التعريفات: الشريف الجرجاني (ت 816) الناشر دار الكتب العلمية بيروت لبنان ط 1، 1983م.
- تهذيب اللغة: محمد بن أحمد بن الأزهر الهروي، أبو منصور (ت: 370هـ) تحقيق: محمد عوض مرعب: دار إحياء التراث العربي، بيروت - لبنان، ط 1، 2001م.
- الحجاج أطره ومنطلقاته وتقنياته من خلال مصنف في الحجاج – الخطابة الجديدة لبرلمان وتيتيكا (عبد الله صولة) بحث ضمن كتاب (أهم نظريات الحجاج في التقاليد الغربية من أرسطو إلى اليوم)، إشراف حمودي صمود، د. ط، كلية الآداب منوبة، جامعة الآداب والفنون والعلوم الإنسانية، د. ت.
- الحجاج في البلاغة المعاصرة "بحث في بلاغة النقد المعاصر، د. محمد سالم محمد الأمين، دار الكتاب الجديد المتحدة، ط 1، 2008م جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة المؤلف: أحمد زكي صفوت الناشر: المكتبة العلمية بيروت-لبنان، ط 1، د. ت.
- الحجاج في الشعر العربي بنيته وأساليبه، تأليف الدكتورة سامية الدريدي، ط 2، عالم الكتب الحديث، إربد – الأردن، بيروت- لبنان، 1432هـ - 2011م.



- الحجاج في القرآن من خلال أهم خصائصه الأسلوبية، تأليف عبد الله صولة، ط2، دار الفارابي، بيروت – لبنان، 2007م. 
- الحجاج والحقيقة وأفاق التأويل بحث في الأشكال والاستراتيجيات، تأليف الدكتور علي الشبعان، ط1، دار الكتاب الجديدة المتحدة، بيروت – لبنان، 2010م. 
- كتابة الجاحظ في ضوء نظريات الحجاج رسائله نموذجاً، تأليف الدكتور محمد علي سلمان، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، 2010م. 
- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور الانصاري الافريقي المصري (ت711هـ)، حققه عبدالله علي الكبير، ومحمد أحمد حسب الله، وهاشم الشاذلي، دار المعارف، مصر، ط1، د.ت. 
- المحكم والمحيط الأعظم، ابن سيده (ت: 458هـ) تحقيق: عبد الحميد هندواي، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان، ط1، 2000م. 
- معجم تحليل الخطاب، تأليف باتريك شارودو و دومينيك منغنو ومجموعة باحثين، ترجمة: عبد القادر المهيري وحمّادي صمود، د.ط، منشورات دار سيناتر، المركز الوطني للترجمة تونس، 2008م. 

البحوث والدوريات

- الحجاج في الدرس اللغوي الغربي، بوزناشة نور الدين، مجلة علوم إنسانية، السنة السابعة ع44، شتاء 2010م. ❖
الخطاب الحجاجي وصلاته الاجتماعية (مقاربة سوسيو لسانية)، أ.م.د. نعمة دهش الطائي: مجلة الاستاد، العدد 220، المجلد الأول، 2017. ❖

الرسائل والأطاريح

- تفسير*أنوار التنزيل وأسرار التأويل* للبيضاوي دراسة في ضوء لسانيات النص (رسالة ماجستير): منتهى مجيد، إشراف مجيد مطشر: كلية الآداب جامعة ذي قار: 2014م. 
- الحجاج في كتاب المثل السائر لابن الأثير (رسالة ماجستير) نعيمة يعمرانن، إشراف د. عمر بلخير، جامعة مولود معمّر – تيزي وزو-، كلية الآداب واللغات قسم الأدب العربي، الجزائر، 2012م. 
- النثر الصوفي في ضوء لسانيات النص، (أطروحة دكتوراه)، خالد حوير الشمس، أ. د، طه محسن عبد الرحمن، كلية الآداب جامعة بغداد، 2013م. 